أزمة البطل المقهور عند شتاينبك ؟

بحث : عبد المنعم صبحى

من بين الذين هاجموا شتاينبك الكاتب الفرنسى المتمرد « الآن روب جرييه » الذى أخذ على شتاينبك واقعيته الجامدة ، وقال انه تطوير لجوركى ، فى وقت صارت فيه الحياة معقدة وغير معقولة بشكل لا يمكن أن يصلح للتعبير عنها الشكل الواقعى التقليدى.

ولم يكن الآن روب جرييه ، هو الوحيد الذى هاجم شتاينبك ، بمثل هذه الحدة .. فلطالما هاجم اليمين شتاينبك ، بسبب انتمائه الى اليسار فى بلد ضرب فيه اليسار بشكل قاهر ... وطالما هوجم فيه من اليسار ، بسبب انحرافاته وتخليه ان لم يستعملوا كلمة « خيانة » عن القضية .

ولقد تركز الهجوم بشكل حاسم فى عام ١٩٦٢ وما بعدها نتيجة لنيله جائزة نوبل فى الأدب . ولقد قيل ان شتاينبك ليس فى مستوى الجائزة ، وقيل أيضا انه ليس أفضل من ينالها .. وقال شتاينبك نفسه ـ **ورأيه هنا لا يهمنا الا على أنه رأى بين** الآراء ـ انه ليس أفضل من يستحق الجائزة . وربما كان الدافع لكلامه هذا ، التواضع الحقيقى ، أو النظرة الموضوعية ، أو محاولة لأن يكفكف بعض حملات الهجوم عليه .

وخطأ النقاد الذين قللوا من مقدار شتاينبك ، أنهم نظروا اليه على أساس انه مرحلة واحدة . وفى الحقيقة يخدع شتاينبك قارئه ، حتى ليبدو انه كاتب بلا مراحل متعددة ، فهو كالبركان يثور من الداخل ، لكنه لا ينتقل من مكانه .. والثورة الدائمة هنا حركة مستمرة .

وبالاضافة الى الحركة الداخلية الهائلة فى أعمال شتاينبك ، فلقد توج أعماله برواية (**شتاء السخط**) التى تصل بمستواها الفنى الى الأعمال الكلاسيكية .. وقد قابلها النقاد بذهول شديد .

وتعنبر (**شتاء السخط**) منطقة تجميع بالنسبة لشتاينبك ، وبالنسبة للرواية المعاصرة ·· أما بالنسبة لشتاينبك ، فهى تجميع للأساليب التى استعملها من قبل ، وتطوير للواقعية التى بدأها فى أعماله السابقة ، حتى وصل بها الى مستوى رفيع جدا ··· أما بالنسبة للرواية العالمية ، فهى تجميع لاتجاهات مختلفة : الواقعية ، والرمزية، والعبثية ··· الخ · ولكن هذا التجميع ليس نتيجة « خطف » أشكال مختلفة لفرضها على الرواية ، بل يبدو فيها أن شتاينبك قد « هضم » كل الاتجاهات المعاصرة ، ووقف « مع » كل هذه الاتجاهات لكى يخدم بها الهدف الأساسى الذى تناوله طوال حيـاته : القضية الاجتماعية ·

ورغم أن المهتمين بالقضية الاجتماعية يبدون دائما قليلى الاهتمام بالشكل ، فهم يضعون ـ بالنسبة للعمل الفنى ـ التكنيك فى المستوى الثانى ، الا أن **شتاينبك** لم يكن أبدا ممن يتخلون عن قضية الشكل ، والا كان قد تجمد فى المستوى الذى وصـل اليه **ارسكين كالدويل** ·· لقد كان الشكل بالنسبة **لشتاينبك** ـ دائما ـ نبض الرواية وروحهـا ·

فى مقدمة روايته « **الضوء الساطع** » أعلن شتاينبك ، أسلوبا جديدا فى شكل الرواية ، أسماه « **القصة المسرحية** » · ويبدو هذا التعبير غريبا ، اذ اننا نعرف ان لكل من القصة والمسرحية عالما مختلفا · ولكن شتاينبك رأى أن « **الدراما** » بمعناها الجديد من الممكن أن تكون عنصرا مشتركا بين الرواية والمسرحية ·· والى جانب ذلك الرواية تحوى « **الحوار** » ، و « **المسرحية** » أساس شكلها « الحوار » · وهكذا كتب « **الضـوء السـاطع** » و « **رجال وفيران** » ·· مشاهد مسرحية كاملة تزيد عليهـا بعض الرؤى الخارجية ، فمن الممكن أن تحذف لكى تنقلب الرواية الى عمل مسرحى أو سينمائى ·

وفى (**شتاء السخط**) ··· تجد هذا الشكل أيضا · فهناك فصول كاملة أساسها الحوار ، حتى أنه من الممكن أن نعدها مشاهد مسرحية ، وخاصة الفصل الأول ··· ونتيجة لاهتمام شتاينبك بالحوار ، نجده مشحونا باللمحات الواقعية والشاعرية والفكر ··· يبدو هذا من الحوار بين (**ايفان آلن هولى**) وزوجته (مارى) ··

ـ ان السنة تبدو من يوم ، واليوم من صباح ··

ـ أعتقد انك استيقظت بهذا السخف ، أتذكر أن اليوم هو يوم « الجلجثة » ·

ـ لا تنتهك المقدسات · هل سيدعك مارللو (صاحب المحل الذى يعمل فيه ايفان) تغلق المحل فى الحادية عشرة ؟

ـ يا زهرتى العزيزة ··· ان مالللو كاثوليكى ومهاجر قذر ··· وقد لا يظهر على الاطلاق · سأقفل المحل من الظهر حتى ينتهى تنفيذ حكم الاعدام ·

ـ ذلك كلام الآباء المغتربين · وهو ليس كلاما مهذبا ·

ـ هراء ··· فذلك كلام أخذته عن أهل أمى · فهو كلام قراصنة · لقد كان فعلا تنفيذ حكم اعدام كما تعرفين ··

وتجرى أحداث الرواية فى مدينة صغيرة من تلك المدن التى يوجد بها كل شىء ، ولا ينقصها شىء ، وهى مدينة « نيوبايتون » فى ولاية « نيوانجلند » · فى الواقع أن هذا الاختيار له دوافعه القوية ··· فهو اختيار يشبه التجريد ··· اذ أن هذه الولاية

من أوائل الولايات الأمريكية التى أنشأها الانجليز ، وهى أيضا تعتبر من أوائل الولايات التى ثارت عليهم • وهى نموذج مصغر للحياة فى الولايات المتحدة الأمريكية كلها ••

وفى الحقيقة نستطيع أن نقول ان (ايفان آلن هولى) ، هو نموذج للانسان العادى فى العالم الحديث ، الانسان الطيب الشريف الذى يؤمن بقيم نظيفة ، وليس له تطلعات غير معقـولة •• ولكنـه واقع تحت حضارة بأكملها ، وتحت ضغط مجتمع انتهـازى العلاقات ، وتحت ضغط المطالب الأسرية المتزايدة • ماذا يستطيع أن يفعل الانسان بهذا التكوين فى مثل هذا الموقف ، الذى يبدو كما لو كان موقفا وجوديا من الدرجة الأولى ؟ انها ليست محنة ايفان وحده • انها محنة الملايين من البشر فى حضارة الغرب •

بعد أن نال شتاينبك جائزة نوبل ـ وكان قد مضى عام واحد على اصدار (شتاء السخط) ، التقى به مراسل صحيفة فرنسية ، وسأله فى حديث معه عن مصادره الأساسية لأبطاله ، فقال له :

« من الحياة • لم أبذل مجهودا أكثر من كونى جعلت نفسى على سجيتها ، تتأرجح على الحبل الساخن الذى تتأرجح فوقه مئات ، بل ملايين النفوس فى أمريكا ، أولا لكى أرى ، وثانيا لكى أحس ، وثالثا لكى أجد ما أقوله ••• كنت فى كثير من الأحيان أتردد ••• أكتب عن شخصية ما ، عامل ميناء ، أو سكير ، أو امرأة ليل • ولكن كان يحدث أن تؤنبنى رؤياى فى الماضى ، على هذه الصورة الحقيقية ، بالغت فيها أم لم أبالغ • كنت أمزق ما أكتبه ، وأذهب الى أقرب كتاب الى يدى لأنسى ماكتبته ، ثم تأتى لحظة تجدنى أكتب ••• ربما أكتب نفس ما مزقته ، وربما أقل ، وربما أكثر ••• وأحيانا لا أمزق !! ••• عالم شخصيات الكاتب ، يؤرقه كثيرا ، ويفرض عليه نوعا من العلاقة فى كثير من الأحيان تتزايد عن علاقة الأب بابنه أو الزوج بزوجته ، وتجعل صـانع الشخوص يحس بنوع من مسئولية «الاله» نفسه ، الذى يخلق البشر ، ويسأل عنهم فى يوم من الأيام •

كل كاتب له منابعه الأساسية لعالم شخوصه ، ومنابعى أنا : حياتى التى تتحرك فى ملل واقبال ، فى برودة وسخونة ، فى تردد واندفاع ••• حياتى التى بدأت منذ أن وعيت الوجود ، وخاطرته وبدا يناضلنى وأناضله » •

ثم وضع جون شتاينبك فى حديثه مع مراسل الصحيفة الفرنسية ، الخطـوط الأساسية لشخصية البطل فى رواياته عامة وفى (شتاء السخط) خاصة :

« انسانى الذى أبحث عنه ، هو (المقهور) ، الواقع تحت الضغوط ، ففيه تكمن المأساة ، وتبرز أشياء لابد من نقلها للناس » •

ان هذا هو (ايفان آلن هولى) : البطل المقهور • انه يريد أن يعيش كما هو ، بائعا فى محل يملكه رجل من أصل صقلى ، ولكن ما حوله يرفض هذا الوضع •• زوجته تريده أن يثور على واقعه ، ويغامر بمالها ••• ابنته المراهقة التى تأتى اليه وتسأله : متى نغتنى ؟ •• ابنه الطفل يشترك فى مسابقة للتليفزيون ويفوز فيها ، وينظم حياته على أساس انه سيكون نجما اجتماعيا تتلألأ عليه أضواء التليفزيون والسينما • أثرياء البلدة يريدون منه أن يرتفع الى طبقتهم لأنه سليل واحد منهم ، فهم يريدون أن يحتفظوا بشىء من « نقاء » الطبقة ، الى جانب انه من الممكن أن يكون صيدا ممتازا بالنسبة لهم •

ولقد استعمل شتاينبك تكنيكا غريبا لكى يعبر به عن أزمة (ايفان) · ان القسم الأول من الرواية ، وهو يحتوى على نصفها الأول ، هو تصوير للضغوط الهائلة التى تمارس على ايفان ، وعلى مقابلته الساخرة لها جميعا · ولكن هذه الضغوط ليست عروضا غبية ، انها ضغط الحضارة بأجمعها · وفى القسم الثانى ينهار ايفان لكى يستسلم لكل المغريات التى عرضت عليه لكى يصير رجلا ثريا · ويقوده الانهيار الداخلى الى انهيار خارجى ·· الى الانتحار ·

وفى القسم الأول يكثر شتاينبك من النظر الى ايفان من الخارج ·· انه يراه ، ويلاحظه ، ويكتب عنه ··· لأن الأزمة كانت أزمة من خارجه · أما فى القسم الثانى ، فنرى شتاينبك يستبطن بطله ، ويجعله يحكى ما فى داخله من رؤى وصور ، لأن الأزمة صارت فى داخل البطل ·

فى هذه الرواية نحس ان شتاينبك قد أعطى للواقعية الأمريكية طعما جديدا · لقد تألقت الواقعية فى أمريكا فى الثلاثينات نتيجة لانتماء مجموعة كبيرة من الكتاب الى اليسار مثل : سارويان ، ودوس باسوس ، وارسكين كالدويل ، وريتشارد رايت ، وجيمس فاريل ، وهمنجواى ، وميللر ، ومالتز ·· رغم عدم انتمائهم الى جيل واحد ·

ولكن (شتاء السخط) محاولة لاعادة الشباب الى الواقعية · انها رحلة الى مدارس أخرى، ولكن شتاينبك لم يترك نفسه فى هذه المدارس · لقد كانت بالنسبة له كالرحلة، عاد منها حاملا التجارب واللآلىء ، لكى يضيفها الى الواقعية ·

ومنذ عام ١٩٣٩ وشتاينبك يكتب فى الاتجاه الواقعى · وكانت أول رواياته : (قدح الذهب) · والرحلة التى قطعها شتاينبك بين هذه الرواية وبين (شتاء السخط) ، كانت رحلة اغناء للاتجاه الواقعى · لقد كان فى البداية متحمسا ، يسيطر عليه الاتجاه الاشتراكى ، فى عنف وتعصب ، ولكنه بعد ذلك جعل الفنان يطفو على السطح ·

والرواية الأخيرة له هى رد على كل الذين اتهموه بالتخلى عن الفن من أجل السياسة ·· فلقد كانت ملحمة الانسان المعاصر فى أزمة الحضارة الحديثة ·· وفى نفس الوقت هى رد على الذين اتهموه بالتخلى عنه قيم الانسانية والسياسية ، نتيجة لضغط الأجهزة الأمريكية ، فلقد كانت ادانة ـ ليس فقط للوضع فى الولايات المتحدة ـ بل للحضارة الغربية كلها ·

والاتجاه الواقعى يبدأ عند شتاينبك منذ (قدح الذهب) ··· وهى رواية تحكى قصة طفل صغير ، يأمل فى أن يصبح شيئا ما ، ويمتلك جزيرة بناما قدح الذهب ··· والمزاج النفسى فى الرواية ، هو نفس المزاج النفسى لعصر شتاينبك انئذ : عصر التوسع والخروج والتطلع ··· وربما كان مايجيش بنفس الطفل (هنرى) هو ما كان يجيش بنفس شتاينبك فى ذلك الحين ، حتى انه جعل (مرلين) فى الرواية تقول له :

ـ انك صبى غض · وأنت تطلب القمر لتحسو الماء من القدح الذهبى · وطلبك هذا ربما جعلك فى يوم رجلا عظيما ، لو ظللت على طبيعتك طفلا غضا · ولكن اذا كبرت وكبرت معك عقليتك وصرت رجلا ، فسترى بعقلية الرجل انك لن تصل الى القمر أبدا ·

ولكن تطلع شتاينبك الى التوسع والخروج ، لم يكن فى خط مواز لكاتب آخر مثل همنجواى ... لقد أراد همنجواى أن يكتشف أمريكا من الخارج ، ولكن شتاينبك ساقه التطلع الى الداخل ، فانتهى الى الرجل الأمريكى .. والى الشخصية الأمريكية .. والى الأزمة الأمريكية .

وتتابعت روايات شتاينبك بعد (القدح الذهبى) ، وظهرت له **(مراعى السماء) و (الى اله مجهول) و (المهر الأحمر) و (تورتيلا فلات) و (شـــارع السردين المحفوظ) و (فيران ورجـال) و » أفول القمر) ... الخ**

فى كل هذه الروايات السابقة ، كان اهتمام شتاينبك ، بنوع معين من الناس فى أمريكا ... هؤلاء الذين يعانون من القهر . وقد سأله الناقد **(دافيد برناسون) :**

ـ لماذا تتجول هذه النماذج الهائمة فى قصصك ... هذه النماذج المضطهدة التى انزلقت من الحياة هكذا ، دونما ذنب لها فى ذلك ؟ لماذا لا تكتب عن صاحب العمـل والعامل ، وأنت رجل اشتراكى ، لماذا لا تكتب عن المصنع والاستغلال داخله ؟

ورد شتاينبك :

« الانسانية ، فى رأيى كالنبات الذى يتجه دائما الى أعلى ، دائما .. ولكنه يجمد ويتوقف نتيجة لما ينسجه حول نفسه من ألياف سميكة تحول بين الضوء والماء وبين الوصول اليه ، فالانسانية كلها تتقدم وتتغلب على مشاكلها التقدمية ، اخترعت مذاهب وقواعد وقوانين وعادات وأفكار وقيم لتساعدها فى تقدمها ، ولكن هـــذه المقاييس لا تساعدها الا الى حين .. وبعد ذلك تعتبر من العناصر المعوقة والمعرقلة التى توقف تقدمها ، وتجمده ، ثم تعمل على قتلها » !

ان هذا الكلام يبين ديناميكية شتاينبك .. وهذه الديناميكية هى التى أنقذته من الجمود المذهبى .

يقول شتاينبك :

« اننى أختار شخوصى أو عناصر أبطالى من أسفل ، لانها هى التى ستنمو وتأخذ دورها بحكم احساسها بالضغوط والمأساة ... ومن هؤلاء أستطيع أن أقول شيئا .. بطريقة مباشرة وبلا تكلف ... شيئا أحسه تماما ، نتيجة معايشة طويلة أخذت من حياتى أياما طويلة .. ولعل ذلك سبب فى أننى لم أكتب عن المستغل والمستغل بالشكل المباشر ، ومن خلال مصنع مثلا » ..

هذا هو فهم شتاينبك للأدب الاشتراكى . وهكذا استطعنا أن نحس بقهر النظام كله على ايفان فى (شتاء السخط) .. دون أن نرى مصنعا واحدا ، ودون أن نرى اضرابا واحدا ..

وحتى فى « فيران ورجال » التى تناولت حياة العمال الزراعيين الأمريكيين الحالمين أبدا بمزرعة موهومة يشترونها بعد أن يقتصدوا أجرها ! وعلاقتهم مع أصحاب الأرض ... لم تكن أبدا عملا مباشرا ... لقد حكت فى روعة قصة العقل والقوة عند العمال ... العامل الابله القوى ، والعامل العادى الذكى ، واحد يعمل والثانى يوجه ... واحساسهما المرير تحت ضغط الواقع والحلم .. وانتهاء احساسها بالنهاية الطبيعية

... الدمار لاحدى القوتين ... وقتلت القوة ، لكى يبقى العقل ، كما بقيت الحركة العمالية الأمريكية مجموعة من المثقفين ، دون قوة جماهيرية مذكورة ..

لقد وصف الناقد السوفييتى (ف.م.م.ناراسوف) هذه الرواية بانها مغرقة فى الانسانية ... ولكنها ليست كذلك فحسب ، بل هى عمل اجتماعى من الدرجة الأولى. انها تصوير ذكى للحياة الأمريكية الحقيقية .

وأنت تقرأ (**عناقيد الغضب**) و (**فيران ورجال**) و (**تورتيلا فلات**) و (**شتاء السخط**) ... وحتى وأنت تقرأ (**يحيا زاباتا**) و (**أفول العمر**) ... تحس بالرؤى الحصبة للحياة ، ويقابلك خط واضح لنماذج « **المناضلين** » بالمعنى العام ... وهـذا الانسان هو الذى أطلق عليه فوكنر « **انسان القاع الثابت من الأرض المتوحشة التى تعطى الدفء** » .

لقد عرف شتاينبك الحياة الأمريكية من قلبها .. لم يجد فى نفسه حاجة مثـل همنجواى لأن يبحث عنها فى افريقيا أو أوربا أو فى أمريكا اللاتينية .. فلقد عمل شتاينبك فى مجالات عديدة .. عمل كعامل بناء ، وعاملا فى أكثر من عشر صناعات مختلفة ، واشتغل جرسونا فى المقاهى والمطاعم . وكان بين فترات العمل يقرأ ويمارس الكتابة ، ويسهر ويتعب ، ويفكر ويتأمل الحياة . كان يكسب القليل ، ولكنه كان يطبق المثل الفارسى : « قرش لغذائك .. وقرش لعقلك » . وهكذا استطاع ـ حتى برغمه ـ أن يدرك أمريكا من الداخل .

وكانت نهاية الرحلة الطويلة أعظم أعماله على الاطلاق ـ باجماع النقاد ـ (شتاء السخط) . ان النقاد يرون فيها انها أولى الروايات الجادة التى كتبها شتاينبك ، وتشمل نظرة شاملة للانسان والوجود ، بعد انقطاع استمر ما يقرب من عشر سنوات ، لم يصدر له فى خلالها الا القصة المرحة (**الخميس الجميل**) ـ وهى قصة تاريخية اسطورية تروى أسطورة الملك بيبين الرابع ... الى جانب كتاب جمع فيه بعض مقالاته ، أسماه (يحكى أنه كانت هناك حرب) .

وتعكس (**شتاء السخط**) مرحلة جديدة فى أدب شتاينبك ... ليست جديدة بالمعنى المفهوم ، ولكنها جديدة بمعنى أنها وضعت شتاينبك فى مستوى جديد وهو مستوى الأدباء الكلاسيكيين .. وجديدة ـ أيضا ـ بمعنى أنها أسلوب الرواية فى المستقبل . ان الرواية (ضد الرواية) و (الرواية اللا معقولة) ورواية (التداعى الواعى) ... وكل الاتجاهات الجديدة تمثل تمردا على الأساليب القديمة ... ولقد استفاد شتاينبك من كل هذا التمرد ، وأضاف اليه خبرته العميقة بالأساليب القديمة التى تعتبر الأشكال الام بالنسبة للروايات مهما تغيرت أساليب كتابتها .

ان هذه الرواية التى صدرت عام ١٩٦١ ، وقبل حصول شتاينبك على جائزة نوبل بعام واحد ، تعتبر نقطة انتقال فى أدب شتاينبك ... ولكن هذا ليس فى أهمية انها نقطة انتقال هامة فى الرواية العالمية .

بعض النقـاد يتوهمون انه سيأتى يوم يؤرخ فيـه للرواية فى العالم برواية (شتاء السخط) ، فيقال : الاتجاهات قبلها والاتجاهات بعدها .. وقد يكون هذا مجرد وهم ، ولكنه لا ينفى ضخامة وروعة آخر ما كتبه جون شتاينبك ..